عام

الفارق بين النهجين الإسلامي واليهودي

(المحدّدات القرآنيّة لصياغة النصّ التشريعي بين المطلق والنسبي وبين الشرعيّة والمنهاج)

محمد أبو القاسم حاج حمد

كاتب ومفكر سوداني

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

سأركب هنا المركب الصعب، فنحن نواجه تحديات كبيرة فيما يتعلق بمفهومنا للتشريعات الإسلامية من ناحية، وتطبيقاتها ضمن المتغيرات النوعية لمجتمعاتنا المعاصرة من ناحية أخرى.

أول التحديات

هيمنت الحضارة الغربية (بمركزيتها العالمية) على مختلف التجارب البشرية المعاصرة، حيث تداخلت فيها تدريجياً منذ منتصف القرن التاسع عشر، والإشكالية هنا أنّ هذه الحضارة الغربية ذات خصائص (وضعية) بدأت بمفارقة اللاهوت والعقل الميتافيزيقي، وانتهت إلى الوضعية التي أفرزت جملة من مفاهيم الحداثة التي (فكّكت المسلّمات) المتعلقة بالكون والإنسان منتهية إلى الليبراليّة، ثم أفرزت (ما بعد الحداثة) التي انتهت إلى (تفكيك الذات) الإنسانية نفسها عبر فهم سلبي لمبادئ الصيرورة والتحول والنسبية والاحتمالية، والخطورة هنا أنه ما بين تفكيك المسلّمات وتفكيك الذات اهترأت القيم الحقيقية المتعلقة بالعائلة والدين والبناء الأخلاقي العام الذي تقوم عليه التشريعات الدينية، فنبذت الذات الفردية الليبرالية كلّ القيم بوصفها مسلّمات تقليدية تمّ تفكيكها، ومن هنا ينظر للتشريعات الدينية بوصفها منظومة مضادة لقيم الحداثة والليبرالية الإنسانية المعاصرة، راجعة بالنقد على المفاهيم التي يؤسس عليها التشريع من جهة كتقييد ممارسة الجنس مثلاً، وعلى نوعيّة العقوبات جلداً أو رجماً أو قطعاً لليد السارق... إلخ، من جهة أخرى.

ثاني التحديات:

إذا كان النسق الحضاري الغربي الذي أفرزته هذه المفاهيم يتعارض مع نسقنا الحضاري الإسلامي، فليس معنى ذلك أنّ مجتمعاتنا لم تتداخل معه ولم تتأثر به، سلباً كان أو إيجاباً، خصوصاً أنّ تجاربنا الفقهية والتشريعية قائمة على اجتهادات مركّبة ضمن أوضاع مجتمعات بدوية ورعوية وزراعية ذات نمط تقليدي في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ووسائل الإنتاج وأدواته، فنحن مواجهون بمتغيرات نوعية فاعلة فينا بدليل مناداتنا الدائمة بالاجتهاد والتجديد والتجدّد، ومحاولاتنا الفكرية الدائبة ومنذ قرن ونصف لإعادة اكتشاف الدين على ضوء المتغيرات، فرحنا نحاور الليبرالية من ناحية والاشتراكية من ناحية أخرى، مقاربة في بعض الأحيان ورفضاً في كثير من الأحيان، فالرافضون يتمّ نعتهم أحياناً بالسفليين أو الأصوليين، والمقاربون يتمّ نعتهم أحياناً بالإصلاحيين أو العصريين، ومهما كانت المسمّيات فما ذاك إلا نتاج للتداخل وعمق الأزمة.

وما بين التحدّيين لم يُستفت القرآن، وإنّما استُخدمت نصوصه كاستشهادات لتوثيق المواقف المتصارعة والاتجاهات؛ أي استخدمت النصوص استخداماً تبريرياً وذرائعياً، وذلك للتأكيد ـ في أغلب الحالات ـ على (ثوابت) ما كان من فهم بشري وتطبيق تاريخي لتشريعات القرآن. واستُخدمت السُنّة النبوية الشريفة لتعزيز

الثوابت التشريعية، واعتُبر كلّ ما يقال خارج ذلك نوع من الخروج على الكتاب والسُنّة والإجماع أو (عصرنة مفتعلة) لا أساس لها، مع العلم بمحاولات (التخفيف) و(الحيل الشرعية) التي أخذ بها بعض الفقهاء، ومفهوم (المصالح المرسلة) التي تدلّ على مدى الرغبة في تجاوز حرفية النصّ التشريعي.

إنّنا لا نتوجّه بالنقد للأصوليين ولا للسلفيين ولا لمحاولي العصرنة، سؤالنا في كُليّته يدور حول موقف القرآن نفسه من هذه الإشكالية. فهل نسقط هذه التشريعات لأنّ توجهات العصر الوضعية الليبرالية لا تقبلها، أم نمضي رغماً عن متغيرات العصر وتأثيره على مجتمعاتنا؟

محدّدات القرآن الكريم:

لقد حدّد القرآن أمرين على غاية من الخطورة أجاب بهما عن هذا المأزق الفكري، حيث ميّز ما بين المطلق والنسبي والشرعة والمنهاج:

يؤكّد القرآن على أنّ كلّ تشريع هو (نسبي) يستمد من (شروط الواقع الاجتماعي والتاريخي وخصائصه)، وذلك في محكم الآية (لكلٍ جعلنا ـ منكم ـ شرعة ومنهاجاً)، فلم يقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ (لكلٍ جعلنا) شرعة ومنهاجاً، فيصبح الأمر مطلقاً، ولم يقل (لكلٍ منكم جعلنا) شرعة ومنهاجاً، فيصبح الأمر مطلقاً أيضاً، ولكن قال (لكلٍ جعلنا منكم) فردّ مصدرية التشريع إلى الإحاطة الإلهية بالواقع (منكم)، فالله ـ سبحانه ـ هو الذي قيّد ما نزل من تشريع بجدل الواقع الموضوعي؛ أي تنزّل المطلق على النسبي.

ولهذا ربط الله ـ سبحانه ـ بين (الشرعة) التي تعني التطبيقات و(المنهاج) الذي يعني تحديد الخصائص والتوجهات وأسس التجربة وقواعدها، فالشرعة ترتبط بالمنهاج. وباختلاف المنهاج تختلف الشرعة، وكلاهما (منكم) إذ يقول الله ـ سبحانه ـ: "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم في ما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" (المائدة / ج 6 / ي 48).

مثال تطبيقي:

وحدة الدين واختلاف الشرعة والمنهاج

من آدم إلى بني إسرائيل إلى المسلمين:

إنّ الدين عند الله واحد، وهو الإسلام، منذ آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، غير أنّ المنهاج كان يختلف باختلاف الحالات:

فآدم خوطب في إطار عائلي (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكُلا منها رغداً، حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) (البقرة/ ج1/ ي 35)، وتبعاً لمنهاجه كانت شرعته.

وخوطب بنو إسرائيل، وضمن منهاجهم بخطاب (قبلي) وبشرعة (إصر وأغلال) التي تتناوب فيها خوارق المعجزات في العطاء بخوارق العقاب، وكانت (الحاكمية الإلهية) فيهم عبر الأنبياء الذين يقفو بعضهم بعضاً، وخوطبوا (بالتوطن) في الأرض المقدسة.

وخوطب المسلمون، وضمن منهاجهم بما يختلف عن ذلك، فالخطاب (عالمي) ناسخ للخطاب القبلي، وبشرعة (تخفيف ورحمة) ناسخة (لشرعة الإصر والأغلال) و(امتنعت) معجزات الخوارق في العطاء لتمتنع خوارق العقوبات، وختمت النبوّة لتبقى حاكمية الله عبر الكتاب، وخوطبوا (بالخروج) كخير أمّة وليس (بالتوطن).

ولكي أركّز على توضيح الأمر أورد المقارنات التالية بنصوص القرآن الكريم لحصر الفوارق ما بين المنهاجين والشرعتين، وكمدخل لكيفية التعامل مع مطلق القرآن ونسبية التطبيق:

(1)

أولاً: في الخطاب الإلهي لبني إسرائيل نجد أنّ النص يتجه للمخاطبة (القبلية) مثل "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون" (البقرة/ ج 1/ ي 40)، ويمتد هذا الخطاب التخصيصي إلى محاورة موسى لفرعون، ليأذن بخروج بني إسرائيل: "وقال موسى يا فرعون إنّي رسول من ربّ العالمين (104) حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببيّنة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل (105)(الأعراف/ ج 9)

المقابل

أولاً: يتّجه الخطاب الإلهي لخاتم الرسل والنبيين ـ عليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام ـ اتجاهاً عالمياً "قل يا أيها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون" (الأعراف/ ج 9 / ي 158).

(2)

ثانياً: حينما وجّه الله خطابه القبلي لبني إسرائيل للخروج من مصر، فإنما أمرهم (بالتوطن) في الأرض المقدسة "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين" (المائدة / ج 6 / ي 21).

المقابل

ثانياً: وجّه الله ـ سبحانه ـ خطابه للعرب (بالخروج) إلى (الناس كافة) وليس التوطن في بقعة محددة "كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون". (آل عمران / ج 4/ ي 110).

(3)

ثالثاً: اتّسم المسار اليهودي/الإسرائيلي بخوارق المعجزات الحسيّة المرئية، من ذلك:

1- التدافع بين موسى والسحرة حين ألقى بعصاه (فالتقفت) وليس (التقمت) ما يأفكون، فجردت أنظار الناس عن متوهم السحر "فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون" (سورة الشعراء / ج 19/ ي 45).

2- شق البحر والسير بين جنبيه "فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم" (الشعراء / ج 19/ ي 63).

3- تظليلهم بالغمام وتدني المنّ والسلوى "وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كُلوا من طيّبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" (البقرة/ ج 1/ ي 57).

4- انفجار الينابيع من الصخر "وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كلّ أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (البقرة / ج 1/ ي 60).

5- تحدي العناد الفرعوني بآيات حسيّة مبصرة "وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (132) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين (133) (سورة الأعراف / ج 9) وهناك معجزات حسيّة أخرى مرئية بالعين.

المقابل

ثالثاً: اتّسم المسار الإسلامي بخلوّه من هذا النوع من المعجزات الحسيّة المنظورة الخارقة، وقد أكّد القرآن على هذا الامتناع، من ذلك:

1- "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً (90) أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً (91) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً (92) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً". (93) (الإسراء/ ج 15)

هنا طلب الأميّون العرب ينبوعاً كانبجاس الماء من الصخر لقوم موسى كما طلبوا معجزات حسيّة خارقة أخرى مماثلة، ولكن امتنع الله ـ القدير ـ عن ذلك.

2- وأوضح الله ـ سبحانه ـ ما كان عليه حال الرسول الموقر حين امتنعت هذه الخوارق من الآيات الحسيّة: "وإن كان كبر عليك إعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السّماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين". (35) (الأنعام/ج7)

وهنا تأكيد إلهي جازم بامتناع هذا النوع من الخوارق في المسار الإسلامي؛ أي أنّ طبيعة هذا المسار الإسلامي مفارقة نوعياً لطبيعة المسار اليهودي الذي يتطلب الخوارق الحسيّة، ولذلك حذّرنا الله ـ العليم ـ من الجهل بالأمر الذي يحبس الخوارق عن طبيعة مسارنا "فلا تكونن من الجاهلين"، بمعنى أنّ هناك أمراً لو علم لما طلبت الخوارق الحسيّة، وجاء التأكيد على اختصاص العلم بفهم هذا الفارق في السياق نفسه حين قال الله ـ سبحانه ـ "إنّما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يُرجعون" (الأنعام / ي 36)، فحصر (نمط التصديق والإيمان) هنا بحاسة السمع ـ أي السماع وليس حتى الاستماع الحسّي كما كان لموسى، فالسماع هو من قابلية الوعي (الغيبي) بالإيمان بتحكيم (السمع والبصر والأفئدة) وليس تحكيم الرؤية الحسيّة كما كان عليه حال بني إسرائيل، فهنا مرتبة أعلى في العلاقة بين الله ـ سبحانه ـ والبشر تتجاوز الحواسّ العضوية، ولهذا ردّ الله الأمر للعلم مرة أخرى في آية لاحقة من بعد أن حذّر من الجهل في مبتدأ الآية السابقة "وقالوا لولا نُزّل عليه آية من ربه قلْ إنّ الله قادر على أن يُنزّل آية ولكنّ أكثرهم لا يعلمون".(الأنعام/ ي 37)

أمّا حين يعلمنا الله بهذا الأمر الذي حذرنا من الجهل به فسنكتشف أنّ مسار إيماننا بالله وعلاقتنا به، إنما تتم وفق مقومات الإدراك الثلاثي (غيبياً) وليس المنظور العيني العضوي بالرؤية الحسيّة كما كان عليه حال

الإسرائيليين، بل إنّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ضاق صدره بعنادهم فأنذرهم بخارق العقوبات، ولمّا لم يشأ الله ذلك فقد جادلوه (أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كسفاً).

أمّا بالنسبة للنبي، فقد أوضح الله نسخه لما (يتمناه) الأنبياء حين يضيق صدرهم بكفر أقوامهم "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته فينسخ الله ما يُلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم (52) ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإنّ الظالمين لفي شقاق بعيد (53) وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقّ من ربك فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم وإنّ الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم (54) ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم". (55) (الحج/ ج 17)

فالذين أوتوا العلم وفي مقدمتهم النبي نفسه، يدركون تماماً أنّ امتناع خارق العقاب ولو تمناه النبي في لحظة (الضيق) هو (حق) مرتبط بنهج التخفيف والرحمة، وعلامة من علامات النبي الأمّي، فتخبت قلوبهم لأنّ الله يصدق هذه العلامة فلا تسقط السماء كسفاً عليهم. أمّا تحديهم للنبي بأن يسقط هذه السماء ويستجيب الله لذلك، إنما هو (فتنة) لهم، ففي قلوبهم (مرض) وقلوبهم (قاسية)، والأجدر بهم أن يظلوا على كفرهم اتساقاً مع طبيعتهم، فالإسلام ليس بحاجة لمثل هؤلاء.

ليس في قولنا هذا تجرأ على مقام الأنبياء الطاهرين أو التقليل من عصمتهم؛ فالعصمة قائمة طالما أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحيط بأفعال أنبيائه فيصرفها بإرادته للمحكم من آياته، ولغايات تشريعية أيضاً فيما يرد حول (منع التبني): "وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسكْ عليك زوجك واتّق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً (37) ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سُنّة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً".(38) (الأحزاب/ ج 22)

وجاء التفصيل بخلفياته السيكولوجية لمنع (مساكنة المتبنى) نفسه في الحرم العائلي: "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنّه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون (23) ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنّه من عبادنا المخلصين". (24) (يوسف/ج 12)

فالإشارة هنا بالتخصيص إلى (المساكنة) "وراودته التي هو في بيتها" بأكثر من عين الشخصين، يوسف وامرأة العزيز.

فما يذكره القرآن في هذه الحالات التي تبدو في (ظاهرها) (نقدية) لمن في قلوبهم مرض، إنما هي آيات إحكام تشريعي بالغ الدقة، حيث يضرب الله الأمثال على خلفية معصومين بلغوا حدّ الكمال فليس المثل بأشخاص عاديين، فلا يستسهل الناس من بعدهم قضايا (التبني) كما يفعل اليوم باسم الرحمة والإنسانية.

فإذا كان العلم قد ارتقى ويرتقي لفك مغاليق التكوين الفيزيائي والبيولوجي، فإنّ علم النفس سيدخل مراحل ثورته لندرك بعدها معنى التبني ومخاطره العائلية وسلبياته.

لذلك حين أراد الله ـ القدير ـ أن يتفضّل على الأميين برسالة الإسلام، حيث يختص برحمته من يشاء، فقد قدر الأمر (نسخاً) لما كان عليه مسار بني إسرائيل، وهذا هو معنى (النسخ) في القرآن، نسخ تجربة دينية سلفت، وشرعة سلفت: "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون". (البقرة/ج1/ي134) وقد (ختمت) هذه الآية على تجربة بني إسرائيل، وعلى الأسباط من أبناء إسحاق (راجع آيات سورة البقرة من 6 إلى 133).

ثم تأتي الآية التي (ختمت) على تجربة النصارى أيضاً "تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون". (البقرة/ج1/ي134) (راجع آيات سورة البقرة من 135 إلى 140).

والآيتان اللتان (ختمتا) التجربتين، اليهودية والنصرانية تأتيان بعد الآية التي (نسخت) المنهاج والشرعة، كما سيرد، وحذرنا منهم تماماً كما حذّر آدم من إبليس، ثم طلب الله منّا ألا نخطئ في فهم الطبيعة النوعية المميزة لمسارنا الديني القائم على علاقتنا (الغيبية) بالله والقائمة على (الإدراك فنطلب من رسولنا ما سبق لبني إسرائيل أن طلبوه من موسى كمعجزات حسيّة: "ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (105) ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير (106) ألم تعلم أنّ الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير (107) أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل". (108) (البقرة/ج1)

هنا سياق إلهي محكم من الآيات التي توضح (النسخ)، باعتباره تجاوزاً موضوعياً وتاريخياً لنمط المسار الإسرائيلي/اليهودي القائم على الإيمان الحسّي المرئي المرتبط بالمعجزات وباتجاه الإيمان الغيبي القائم على المدارك، ولهذا نهانا الله في السياق نفسه عن طلب الخوارق الحسيّة التي طلبت من موسى، والتي كانت توافق مع المسار الموضوعي التاريخي للحالة الإسرائيلية التي هي أدنى درجة من الحالة الإسلامية ومسارها، وبالرغم من أنّ بعض المفسرين ـ رضوان الله عليهم ـ قد تأوّلوا وجهاً آخر لمعنى (النسخ) باعتباره نسخاً في

آيات القرآن الكريم وليس نسخاً للحالة التاريخية الإسرائيلية ونمطها الديني الحسيّ كما أوضحنا، حين ربطنا الآيات ربطاً كُليّاً وعضوياً دون تجزئة السياق، فإننا نأتي بهذا الوجه لمعنى (النسخ) فيما نوضّحه ضمن (المقارنة) المتعددة الجوانب بين الإسلام واليهودية، فنحن من مدرسة لا تعتقد أنّ هناك آيات في القرآن المقروء تنسخ بعضها بعضاً، وإنّما هناك متشابهات تعارض، صعب على البعض اكتشاف ما يوحّد بينها، إمّا لإشكاليات في استخدام اللغة دون إدراك الفارق المنهجي بين التوظيف الإلهي لمفردات اللغة بمستوى الاصطلاح (الرياضي المثالي) والتوظيف البشري البلاغي بمتكرر مترادفاته ومشتركه وسجعه وشعره، وإمّا لعدم الأخذ ـ حين (التفسير) ـ بوحدة الكتاب العضوية واكتشاف منهجيته الرابطة لكل آياته من الفاتحة إلى المعوذتين بمنطق (تحليلي)، أو نتيجة الأخذ ببعض الأحاديث التي تبدو متعارضة مع صريح القرآن دون التدقيق الكافي في هذه الأحاديث وصحّة نسبتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؛ أي مراجعة (المتن) قبل (السند)، ومضاهاة المتن مع النصّ القرآني، ثم بعد ذلك النظر في السند، فخلاصة أمرنا ـ من بعد ما بيناه ـ أنّ النسخ يعني تجاوزاً لحالة دينية تاريخية قائمة على (المدرك الحسي) إلى علاقة قائمة على (المدرك الغيبي) وقوى (الوعي الثلاثي) ـ سمعاً وبصراً وفؤاداً ـ فلزم أن ينهانا الله عن طلب ما كان لقوم موسى من معجزات في سورة البقرة، وكما حذرنا من الجهل بهذا الأمر في سورة الأنعام، وأكد لنا على امتناع المعجزات في سورة الإسراء، فهذه سور عدة أحكمت هذا المعنى للنسخ التاريخي وردّت اكتشاف الأمر به إلى العلم الذي يعني اكتشاف الفارق بين المسارين، وسنوضح لاحقاً حكمة هذا الفارق.

كما نودّ أن نشير إلى أنّ البعض ممّن يجهلون هذا الفارق وحذرهم الله من الجهل به قد انساقوا وراء (حميّة) عصبوية ظناً منهم أنّ خلوّ الرسالة الإسلامية من المعجزات الحسيّة كإحياء السيد المسيح للموتى أو معجزات موسى، إنما يقلل من (مرتبة) الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إزاء مراتب الرسل الآخرين من الذين أتوا بهذه الخوارق، وبالذات موسى وعيسى ـ صلوات الله عليهما ـ فنسبوا للرسول الموقر معجزات حسيّة كتدفق اللبن من بين أصابعه وانحناء جذع الشجرة له، وما أدركوا أنهم بذلك يقللون من شأن خاتم النبيين بجهلهم ـ الذي حذر منه الله ـ بالطبيعة والنوعية المفارقة بين الديانتين، الناسخة الإسلامية والمنسوخة اليهودية، مع رجاء قراءة بحثنا المبدئي في خصائص النبوة والرسالة الخاتمة.

(4)

رابعا: اتّسم التشريع الإلهي لبني إسرائيل بالعقوبات الحسيّة الغليظة التي وصفها الله بأنها (إصر وأغلال)، والتي امتدّت إلى تحريم ما هو حلال بطبيعته، وذلك نتيجة ظلمهم وطغيانهم، ويمكن توضيح الأمر على النحو التالي:

1- "فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً (160) وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليماً". (161) (سورة النساء / ج6)

2- حين تحللوا عن قيود (السبت) وغضب الله عليهم فمسخهم إلى قردة "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" (البقرة/ج1/ي65) وكذلك إلى قردة وخنازير "قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل". (المائدة/ج6/ي60)

3- ويمضي العقاب الحسيّ الخارق إلى نتق الجبل فوقهم "وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون" (الأعراف/ج9/ي171) وكذلك "وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قلْ بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين". (البقرة/ج1/ي93)

4- ويمضي العقاب الحسيّ الخارق إلى درجة الصعق والموت ثم البعث في الدنيا من جديد "وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون (55) ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون". (56) (سورة البقرة/ج1)

5- وتمضي إصر التشريعات وأغلالها التي جعلها الله على الإسرائيليين إلى مستوى لا ينظر معه إلى قتل النفس بصيغة (المفرد) بحيث تقبل الفدية، وإنما قتل النفس الواحدة هو القتل الجماعي "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون (32)، إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم".(33)(المائدة/ج 6)

وقد طبّق سيد الأنصار في المدينة المنورة هذا النص التشريعي المعمول به في التوراة عليهم حين حاربوا الله ورسوله في غزوة الخندق وحلفهم مع الأحزاب، وهو نص وارد بحق اليهود وليس المسلمين، فالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف من شرعة الإصر والأغلال وليس (التخفيف والرحمة)، إلا أنّ بعض الفقهاء قد استمدّ منه تشريعاً يوصف (بحد الحرابة) طبّقه على المسلمين دون رجوع إلى مبتدأ الآيات الدالة

على خصوصيته التشريعية اليهودية كنوع من الإصر والأغلال، تماماً كالنصّ بحقهم بالقتل الجماعي ضمن الحالة الفردية، حيث لا تقبل الفدية.

6- ويتخذ الله تشريعاً للإسرائيليين يقتضي معه (المماثلة) فلا يتم القبول بعقوبة قياسية أو تعذيرية تؤخذ بالاجتهاد، وإنما الجزاء من طبيعة العمل نفسه وليس من جنسه "وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (45) وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين". (46) (سورة المائدة/ج6) فأصل هذا التشريع كان عليهم من قبل عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونكتشف فيه أنّ عفوهم في حال الجروح لا يعتبر صدقة وإنما (كفارة) ـ (فمن تصدّق به فهو كفارة له) ـ والفارق بين الكفارة والصدقة، أنّ الكفارة إنقاص من سيئات في حين أنّ الصدقة هي إضافة إلى حسنات أو إضافة حسنات، وما ذلك إلا لأنّ الإسرائيلي الذي شُقّ له البحر وتدنى له المن والسلوى وظلل بالغمام وانبجس له الماء من الصخر لا يعامل في حال العقوبات والغضب الإلهي عليه إلا بما يماثل العطاء الحسيّ الخارق، فهذه من تلك، ولذلك جعلت صدقته (كفارة)، لأنّ المطلوب منه مماثل لما أعطي له، وهو دائما ـ أي الإسرائيلي ـ في ما يعطيه دون مستوى ما يأخذ، في حين أنّ الله يشرع لعفو المسلم في الدم بوصف هذا العفو صدقة وليس كفارة "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم". (البقرة/ ج2/ي178) فهنا أشار الله سبحانه إلى مبدأ (التخفيف) في التشريع على المسلمين، وجعل الفدية إتباع بمعروف وإحسان.

7- أكّد الله على هذه الإصر والأغلال بحق اليهود حين لجأ إليه موسى وقومه اعتذاراً عن عبادة العجل، سائلين الله التخفيف، فأوضح الله لهم استمرار الإصر والأغلال كعقاب حسيّ خارق يماثل العطاء الإعجازي الحسي الخارق، إلا أن يتبعوا النبي الأميّ الذي تتميز شرعته بالتخفيف المقرون بالرحمة وبالعالمية، فكان هذا مبتدأ الإشعار لليهود بنسخ المسار الديني التوراتي ونسخ الشريعة التوراتية وإصرها وأغلالها كما ورد في سورة البقرة (الآيات من 105 إلى 108) وقد كان حوار الله ـ سبحانه ـ مع موسى عليه السلام والسبعين رجلاً على النحو التالي في سياق الآيات الواردة في سورة الأعراف "واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (155) واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون

ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (156) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون" (157). (الأعراف / ج 9) فبموجب هذه الآيات جعل الله التخفيف والرحمة ووضع تشريعات الإصر والأغلال (وقفاً) على الرسول النبي الأمّي، باعتبار الإسلام ناسخاً لليهودية ومفارقاً لمسارها، وبما توضحه هذه المقارنات.

فإن جاء النبي بغير شرعة التخفيف والرحمة واتّبع شرعة الإصر والأغلال لم يكن هو النبي الأمّي الذي وعد الله به حين اهتزّ الجبل ببني إسرائيل "يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم" لذلك خاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ النبي الأمي بقوله: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً (73) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً (74) إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً. (75) (الإسراء/ج15)

فهنا تحذير إلهي شديد لا ينصرّف لذات الرسول المعصومة والمستجيبة بالمطلق لأمر الله لها، ولكن ينصرف التحذير لخطورة الأمر نفسه؛ أي اتباع شرعة الإصر والأغلال، ولو كان في الأمر ترضية للإسرائيليين فتبطل بذلك أهم علامات النبي الأمّي.

وكذلك يأتي التحذير الإلهي "ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على العالمين (16) وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إنّ ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (17) ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (18) إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين (19) هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون (20). (الجاثية/ج25)

وجعل الله القرآن (مصداقاً) لتلك الكتب و(ناسخاً) لها، و(مهيمناً) عليها، فالذين يأخذون بشرعة الإصر والأغلال، ولو من فقهاء المسلمين إنما يبطلون علامة النبي الأمّي، ويبطلون هيمنة القرآن على ما سبق من كتب ويبطلون نسخه لأحكامها.

كما بشّرهم الله في تلك الوقفة نفسها على الجبل بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجعله حلقة وسطى بين موسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

المقابل

رابعاً: اتّسم التشريع الإسلامي بالتخفيف ووضع الإصر والأغلال كما أشار الله إلى بني إسرائيل في وقفة الجبل، وليحلّ أيضاً تلك الطيبات التي حُرّمت عليهم، وليتجه بالدعوة اتجاهاً عالمياً.

1- لهذا جاء تصديق الوعد الإلهي في الآية المتصلة بوقفة الجبل من بعد البشارة بالنبي الأمّي وشرعته المخففة والناسخة للشرعة اليهودية "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون" (158) (الأعراف/ج9).

2- باتجاه سُنّة الرسول العملية نحو التخفيف والرحمة في التشريع تأكيداً للبشارة به في سورة الأعراف وتحقيقاً وتبياناً لليهود أنّ الرسول الموقر هو النبي الأمّي المبعوث إلى الناس كافة والقائم على الشريعة المخففة، وأنّ مرحلتهم قد نسخت، فجعلوا همّهم الطعن في أهمّ علامتين من علامات الرسالة الإسلامية، وذلك بالطعن في (شرعتها المخففة) من ناحية وفي (عالميتها) من ناحية ثانية، فعبر الطعن في هذين الأمرين بالذات يحاولون إبطال جوهر الرسالة الإسلامية الناسخة لهم ولدورهم ولدينهم، ولقد حذرنا الله ـ سبحانه ـ كثيراً من هذا التوجّه اليهودي حين ذكر في مبتدأ آية النسخ "ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزّل عليكم من خير من ربكم والله يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم". (البقرة/ ج1/ ي 105)

ومع هذا التحذير الإلهي لنا، والذي يماثل تحذيره لآدم من إبليس، وقعنا في خطأ ما دسّ علينا، وبالذات حين نُسب إلى الرسول تنفيذه لأحكام هي من نوع الإصر والأغلال التي أوردها القرآن الكريم ضمن شرعة ومنهاج إسرائيل، ولم ننتبه نحن إلى مغزى هذا الدسّ الذي يمضي لأبعد من قيمة الأحكام نفسها، فالمقصود به في النهاية البرهان على أنّ محمداً يتّبع ما كانت عليه شرعة اليهود، ولو اتّبع النبي الأمّي شرعة اليهود بمنطق من قالوا: "شرعة ما قبلنا شرعة لنا" لما كان هو النبي الأمّي القائم بعلاقة التخفيف والرحمة، وبالتالي ليس هو بالنبي الأمّي الناسخ لشرعتهم بشرعة التخفيف، وبالتالي تبطل عالميته وعلامته، وعليه لا بدّ من مراجعة بعض هذه التشريعات المدسوسة علينا دون أن ننتبه إلى خطورة مغزاها، فإذا صدق القول أنّ شرعة ما قبلنا شرعة لنا فيعني ذلك أنّ محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس هو بالنبي الأمّي الموعود به في سورة الأعراف، وهذا قصد من دسّ هذه الأحاديث ونسب بعض الأمثال للنبي، فمتى يستفيق فقهاء هذه الأمة؟

فالمراجعة تتمّ وفقاً للقرآن وأحكامه ونصوصه وإلا انطبقت علينا آية (المماثلة) بالحمار الذي يحمل على ظهره كتباً (أسفاراً) ولا يدري ما بها "يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم

(1) هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين(2) وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم (3) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (4) مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين"(5) (الجمعة/ج28).

لم يستهلّ الله الآية بالقول (إنّ) الذين حُمّلوا التوراة لينصرف الأمر قطعياً لليهود فقط، وإنما (مثل) الذين حُمّلوا التوراة، فالمعنى ينصرف إلى (اثنين) أولهما: اليهود الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها إلا كما يحمل الحمار أسفاراً على ظهره وثانيهما: (مثلهم) أي الذين يماثلونهم في الكيفية التي حملوا بها كتابهم، والإشارة واضحة في مستهل سورة الجمعة التي تبدأ بالأميين العرب، ولا يستحيي الله من قول الحق، بالنسبة للإسرائيليين من بعد موسى، وبالنسبة للأميين العرب من بعد خاتم الرسل والنبيين، عليهما أفضل الصلاة والسلام.

أمّا ما حدث في المدينة المنورة يوم الأحزاب من تطبيق لحد (الحرابة) على اليهود والمنصوص عليه في سورة المائدة /ج6/ي33، فهو تطبيق لنص التوراة عليهم ـ كما ذكرنا ـ بعد أن رفضوا الإسلام، وقد أوكل الرسول الحكم عليهم بنص التوراة إلى سيد الأنصار (سعد) ولم يتول الأمر هو شخصياً، فذاك الحد (الحرابة) ليس من شرعته.

3- تبعاً لنسخ الإسلام لشرعة الإصر والأغلال، فقد وضع منطوق (الكفارة) نهائياً عن المسلمين إلا في حالتين تمسّ الأولى منها القسم زوراً بالذات الإلهية (المحرمة)، وتمسّ الثانية مخالفة أحكام التحريم في الأرض المحرمة: "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون" (المائدة/ج7/ي89).. أما النص على الكفارة الثانية: "يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمّداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام" (المائدة/ ج7/ ي 95).

4- هذه هي الفوارق الجوهرية بين الديانتين، وبالتالي ينبغي على الفكر الإسلامي أن يتعمّق في معاني (عالمية الخطاب) و(حاكمية الكتاب) و(شرعة التخفيف والرحمة)، وعدم الأخذ بما كان في شرائع الدين اليهودي المتجه نحو الخطاب القبلي الحصري والمدركات الحسية المرئية، وبذلك نصل إلى فهم (النظام الديني الإسلامي) وأبعاده الفكرية الفلسفية أي منهاجه، مع إعادة النظر في القرآن (الكريم الذي يعطي دائماً) و(المجيد

الذي لا يبلى) و(المكنون الذي يتكشف) وفق هذه المعطيات، فالإسلام هو دين المستقبل كما هو دين الحاضر والماضي، وأهمية هذه المقارنة أنها توضح آفاق العلاقة بين المطلق والنسبي "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً"، وبهذا يجمع الله لنا بين كتابنا الخاتم لكل الكتب والمصدق لها، وبين الثابت والمتحول في الزمان والمكان.

5- فليس هناك تناسخ بين نصوص القرآن وأحكامه ونصوص السُنّة النبوية الشريفة وأحكامها، فالقرآن والسُنّة كلاهما معصومان، يوزنهما ـ سبحانه ـ بمواقع النجوم:

فبالنسبة للقرآن، يقول الله سبحانه: "فلا أقسم بمواقع النجوم (75) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (76) إنه لقرآن كريم (77) في كتاب مكنون (78) لا يمسه إلا المطهرون (79) تنزيل من رب العالمين(80)" (الواقعة/ج27).

وبالنسبة للسُنّة النبوية، يقول الله سبحانه "والنجم إذا هوى (1) ما ضلّ صاحبكم وما غوى (2) وما ينطق عن الهوى (3) إنْ هو إلا وحي يوحى (4)" (النجم/ج27).

فلا مجال لأن يُدسّ على السُنّة بما يناقض القرآن، أو أن يقال (إنّ السُنّة ناسخة للقرآن)، أو أن يقال (إنّ شرعة ما قبلنا شرعة لنا)، فهذا كله مناقض للقرآن ومنهجيته المعرفية، فيطبق على المسلمين ما يتناقض مع شرعتهم المخففة ومنهاج دينهم.

ليس في الإسلام عقوبات نكال وإصر وأغلال:

دون تحسب لأيّة عواقب في هذه الدنيا الفانية بجسدها الفاني، فالعاقبة الحسنى عند الله وحده سبحانه وتعالى حين نفصح عن الحق، أو قلْ، وبما قدمت من براهين، إنّه ليس في الإسلام وفي شرعة التخفيف والرحمة ما كان من أحكام تتعلق بشرعة الإصر والأغلال، فلا صلب من خلاف ولا تقطيع للأيدي والأرجل فيما يسميه بعض الفقهاء (بحد الحرابة).

كذلك ليس فيه شيء من عقوبات (النكال) فعقوبات (النكال) من ماثلات عقوبة (الصلب) وهي على اليهود وليس على المسلمين، وذلك حين اعتدوا على حرمة يوم السبت، وعلى فرعون الذي ادّعى الألوهية وتجبّر في الأرض.

وهنا آيات النكال ومناطها الفقهي وكيفية توظيفها:

"هل أتاك حديث موسى (15) إذ ناداه ربّه بالواد المقدس طوى (16) اذهب إلى فرعون إنه طغى (17) فقل هل لك إلى أن تزكّى (18) وأهديك إلى ربك فتخشى (19) فأراه الآية الكبرى (20) فكذّب وعصى (21) ثم أدبر يسعى (22) فحشر فنادى (23) فقال أنا ربكم الأعلى (24) فأخذه الله نكال الآخرة والأولى" (25) (النازعات/ج30).

وكذلك:

"والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم (38) فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإنّ الله يتوب عليه إنّ الله غفور رحيم" (39) (المائدة/ ج 6).

فحتى من يريد من الفقهاء تطبيق حد النكال في السرقة على المسلمين متذرعاً بالأمر الإلهي في مستهل الآية (فاقطعوا أيديهما) عليه أن يلتزم وبمنطقه نفسه بما يرد في الآية نفسها (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح)، فباب التوبة مفتوح أمام السارق قبل تطبيق الحد النكالي عليه، وله فرصة أن يصلح "وأصلح"، سواء كانت فرصة الإصلاح راجعة لمراقبة المجتمع المسلم أو غير ذلك.

ولم يربط الله هنا بين التوبة وعدم القدرة على الجاني أو الجناة كما كان على اليهود الذين حاربوا الله ورسوله وأفسدوا في الأرض: "إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (33) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أنّ الله غفور رحيم" (34) (المائدة/ ج 6).

فالذي سبق وأعلن توبته من قبل الإمساك به لا ينطبق عليه الحد، وإنما عليه أن يصلح، وقد علمنا ملابسات تطبيق حد الصلب على اليهود من بني قريظة أثناء غدرهم بالمسلمين في غزوة الخندق بالمدينة المنورة ونقضهم للميثاق الذي أطلق عليه مسمّى (صحيفة المدينة).

فحين ربط الله بين النكال والسرقة جعل قطع اليد في مناط أحكام الإصر والأغلال، كالذين اعتدوا في السبت وهو يوم (محرّم) فاصطادوا حيتان البحر "واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر، إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون" (163) (الأعراف / ج 9)، فكانت العقوبة مسخهم إلى قردة في حين أنّ الله لم يمسخ الذين يعتدون على (حرمة) البيت الحرام أو (الأشهر الحرم) بجعلهم قردة وخنازير، وإنما اشترط عليهم الكفارة فقط، وذلك ضمن شرعة التخفيف والرحمة: "يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمّداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم

به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام" (95) (المائدة / ج 7).

وزاد الله ـ الرحمن الرحيم ـ إلى ذلك أن خفّف على المسلمين، المحصن منهم وغير المحصن، عقوبة الزنا من الرجم إلى الجلد، بما ورد في سورة (النور): "سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون(1) الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين(2) الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين(3) والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون (4) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم(5) والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين(6) والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين (7) ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين (8) والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين(9) ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله تواب حكيم" (10) (النور/ 18).

فالذين ميّزوا في الأحكام بين محصنة وغير محصنة، أو بين محصن وغير محصن وأتوا بأحاديث وأمثال نسبت إلى السُنّة النبوية المطهّرة، إنما نسخوا القرآن بما نسبوه للسُنّة، وألغوا ميزان التناول الإلهي لما هو معصوم في الحالتين، القرآن كمواقع النجوم، والسُنّة والنجم، وما الجلد إلا من طبيعة الفعل الغريزي البهيمي وهو الزنا، حيث يخل بضوابط السلوك الأخلاقي الإنساني، فحين يتحوّل الإنسان إلى بهيمة تبعاً لسلوكه الغريزي، فإنّ الجلد عقاب مطابق لهذه البهيمة.

ولا أريد أن أدخل في شائكة الحديث المنسوب الذي أكله (داجن) ولا في من روى ذلك الحديث، فهذا كله من (لغو) القول بعد إفادة النص القرآني ومنهاج التخفيف والرحمة.

كيف جاز الدسّ على المسلمين والنصارى؟

الحجّة المضادة دائماً كيف لنا أن نأخذ بأقوال (مستجدة) إن لم تكن (مبتدعة)، وقد قال (أئمة) المسلمين و(فقهاء) الأمة قولهم في تلك الأحكام؟ وقد كانوا الأقرب إلى عهد النبوة؟

القائلون بهذا القول أهملوا (مصدر الدسّ) الذي حذّر منه الله سبحانه وتعالى مسبقاً، حين أشار إلى اليهود من بني إسرائيل الذين لا يودون أن يتنزل على المسلمين فضل من ربهم ورحمة وكذلك المشركين:

"واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون (102) ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون (103) يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم (104) ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (105) ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير (106) ألم تعلم أنّ الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير (107) أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل (108) ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير (109) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إنّ الله بما تعملون بصير (110) وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين(111) بلى من أسلم وجهه لله، وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (112) (البقرة/ ج 1).

وقد بيّن الله أنّ (من) أهل الكتاب أولئك من يعمد إلى قطع التواصل بين الله والآخرين من خلقه (استئثاراً) بما ينزل الله، و(إثرة عصبية): "الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون" (البقرة/ج1/ي27).

فهم لا يريدون أن يخلو وجه الله ـ سبحانه ـ لغيرهم، وإن أدمنوا المعصية، تماماً كحال سلفهم من أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ حين كادوا لأخيهم يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم: "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين (7)، إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين (8) اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين" (9). (يوسف/ج12) وليست قصص القرآن إلا أحكاماً لما وراء البديهيات من المرويات.

لم يأخذ المسلمون بهذا التحذير الإلهي الخطير، فانطلى عليهم (الدسّ) من خلال ما ابتدعه اليهود في (الأحاديث) ونسبوه إلى (السُنّة) لأنّ القرآن لا يمكنهم الوصول إليه: "إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون" (الحجر/ج14/ي9).

فالقرآن ذكر (محرّم) منزّل في (بيت حرام) على خاتم الرسل والنبيين، وليس ذكراً (مقدساً) منزّلاً في أرض (مقدسة) هي دون المحرّم (هنا تراجع دراستنا حول خصائص القرآن وخصائص النبوة والرسالة الخاتمة).

حين يدرأ البعض من فقهاء هذه الأمة ما برهنا عليه بأن الأمر ما كان ليفوت على أئمة الأمّة وفقهائها من السابقين لما وصلوا إليه من معرفة باللغة العربية، وما كانوا عليه من قرب زماني لعهد النبوة والصحابة والتابعين، فإننا نسأل بدورنا كيف انتهت المسيحية في حضارة أوروبا إلى (تجسيد) السيد المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجعله (إلهاً) أو (ابناً) لله ـ وقد بلغت أوروبا في المعرفة وموازين (النقد) الفلسفي والفكري والأدبي ما يتجاوز موازين (الجرح والتعديل) لدى العرب؟

تقييم توينبي لنصوص الإنجيل:

يمكن أن نأخذ فقط بهذا التحليل النقدي للمؤرخ الفيلسوف (أرنولد توينبي):

تحتل مسألة طبيعة المسيح، والأناجيل المنسوبة إليه، وعلاقة هذه الأناجيل بالتوراة حيّزاً كبيراً في محاورات الفلسفة الغربية وأفكار الإصلاح الديني. وتمتدّ هذه المحاورات لتشمل أرجاء عديدة في مفهوميات العقيدة المسيحية وفكرة الخلاص.

بدأت المحاورات منذ بداية تنسم الغرب المسيحي لرياح المتغيرات الاجتماعية والذهنية، والتي حملت معها ارتجاجاً كاملاً في مفهوميات الفكر الديني المسيحي.

فمنذ القرن الثالث عشر الميلادي على وجه التقريب، هناك أولاً (جون وايكليف) الإنكليزي الذي عاش في القرن الرابع عشر و(جون هاس) من بوهيميا الذي عاش أوائل القرن الخامس عشر، حيث قادا تياراً تجديدياً على أساس تعاليم أوغسطين ووجّهها من خلاله نقداً عنيفاً للنظام الكنسي التقليدي. قيل وقتها إنّ الكنيسة الصحيحة تتألف من أولئك الذين انتقاهم الله للخلاص، وإنها ليست مرادفة لكنيسة روما. وبالاستناد إلى هذه النظرية لم يكن للانتماء إلى الكنيسة (المرئية) والمساهمة في طقوسها أيّ تأثير على خلاص الإنسان. وأصبح النظام الكاثوليكي بكامله غير ضروري. دفع (هاس) حياته ثمناً لذلك الموقف الجريء، أمّا (وايكليف) فقد تابع رحلة النقد داعياً إلى الرجوع إلى التوراة بعد أن ترجمها إلى الانكليزية، باعتبارها المرجع الأخير للعقيدة، في حين اتجه (لوفيفر ديتابل) في مرحلة أخرى إلى نقد الشروحات والحواشي وحاشية الحواشي التي تلبّست الأناجيل وفرضت عليها طلاء مخالفاً لها.

عبر تلك المحاولات النقدية المتقدمة فتح الطريق للإصلاح اللوثري والإصلاح الكالفني، من أهم نتائج (لوثر) أنّ الإيمان بالنسبة إليه لم يكن أبداً مجرد التمسك بالتقاليد، فالاعتقاد كالحياة الأخلاقية هو ثمرة الإيمان لا جوهره، بمعنى آخر استطاع لوثر أن يؤكد على مرتبة الحق الفردي في تأويل الإنجيل والتركيز على مفهوم (المحبة) في العلاقة بالله، خلافاً لمفهوم (كالفن) الذي ركّز على (الحسّ الدقيق بإرادة الله المسيطرة وسلطانه).

وعلى الرغم من الفارق بين المفهومين، ومختلف مفاهيم التجديد المسيحي يبقى القول إنّ لوثر وكالفن لمّا ناديا بوجوب اعتماد العقل في تأويل التوراة فتحا المجال لتيار عقلي أخذ في التضخم، ثم دفع التطور الحضاري بدور العقل خطوات إلى الأمام. هكذا نشأت الثغرة في العالم المغلق وابتدأ الكفاح الطويل من أجل الحرية؛ أي حق الذكاء الفردي في العمل على تحقيق أهدافه دون أن تعيقه حدود سلفية.

تولّى التطور الأوروبي بعد ذلك، ومنذ مفاهيم (نيوتن) عن آلية الكون، دفع النقد التحليلي للفكر المسيحي إلى مدى أبعد، حيث تعرضّت مصداقية النصوص الإنجيلية نفسها للتشكيك. وأشير هنا إلى دراسات (برونو باور) التي نشرها في كتابه الصادر عام 1840 حول (نقد تاريخ إنجيل القديس يوحنا) وكتابه الآخر عام 1841 حول (نقد تاريخ الأناجيل الأربعة وإنجيل يوحنا). أكد (باور) أنّ الأناجيل لا تتضمن أيّ ذرة من الحقيقة التاريخية وأنها وضع تلقائي لكتاب الأناجيل، بل إنّ (باور) مضى لأبعد من ذلك حين أصدر كتابه (نقد التفسير اللاهوتي للأناجيل) في برلين 1852 حيث بيّن أنّه ليس ثمة رابط بين التوراة والإنجيل، وأنّ الدين المسيحي ليس سوى فلسفة وضعية تعبر عن وعي زمانها صاغها الكتاب.

بعد هذا نطرح ما أثارته الرسائل المتبادلة بين توينبي وروزنتال التي نشرت في جريدة "التايمز" بتاريخ السبت 1975/12/20.

المراسلات غير المنشورة بين توينبي وروزنتال

توينبي هو أحد المعالم الفكرية في قرننا وقد توفي عام 1975، وفي هذه الصفحات يناقش فيليب هوارد مراسلات توينبي غير المنشورة حول موقفه من المسيحية واليهودية.

"حين مات أرنولد توينبي في أكتوبر كان قد أكمل عملاً جليلاً سبق أن كرّس له حياته عن وتيرة نشوء وسقوط الحضارات ومعنى الأحداث واتجاهها العام. وبغض النظر عن المآخذ حول دقّة آرائه عن العالم، إلا أنّ ذلك العمل سيبقى أثراً فكرياً بارزاً لقرننا العشرين لما يتميز به من سعة في الأفق واستيعاب لتأثير المدّ الديني على التاريخ، الأمر الذي لم يدرج على تناوله المؤرخون المعاصرون في دراساتهم الأقل تعمقاً.

خلف توينبي من ورائه مراسلات غير مكتملة وغير منشورة توضح في أهم جوانبها أنّ تصوره للدين كان آخذاً في التغير عند نهاية حياته. وكانت هذه المراسلات التي تتناول العلاقة بين المسيحية واليهودية متبادلة مع (إبراهام روزنتال) الكاتب والباحث في علم الأديان المقارن. وقد كرّست الرسائل بشكل خاص لبحث آفاق مستقبل الديانتين المتلازمتي النمو في (إسرائيل)، والتي يكره توينبي معاملتها ككيان سياسي.

كانت فكرة التطور باتجاه ديانة عالمية تستخلص الأفضل من ديانات العالم الكبرى هي الخيط الرئيس والمهيمن على أعماله.

أثناء حياة توينبي منع المستر روزنتال نشر المراسلات متحججاً بأنها شخصية جداً. وتعتبر المراسلات من الجانبين وثائق مذهلة لحوار بين عقلين حادي الذكاء، إذ تتناول بعمق أعظم وأكثر مسألة يلفها الغموض في العالم.

بدأت المراسلات قبل عشر سنوات تقريباً حينما كتب المستر (روزنتال) إلى البروفسير (توينبي) رسالة عن وصفه لليهودية في محاضرة ألقاها الأخير ذلك الأسبوع بأنها (من البقايا المتبقية عن الحضارة السريانية القديمة) ويبدو أنّ هذا القول كان يتعارض مع رأي سابق لتوينبي ذكر فيه (أنّ اليهودية هي الديانة الوحيدة التي يمكن أن يتكاثر معتنقوها كلما تقادمت العصور..).

تولّى توينبي الضرب على الحديد ساخناً فقال في إجابة مسهبة إنّه شعر بأنّ المراسلات تقودهما عميقاً إلى تفاهم مشترك... قال في بعض الفقرات إنّ اعتقاداتي الخاصة عن يسوع هي كالآتي:

1- إنه رجل فان وليس إلهاً:

"لماذا تدعونني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله" إنجيل متى إصحاح رقم 19 عدد 17 و"يا إلهي.. يا إلهي لماذا تخليت عني؟"

إنّ هذه الأقوال هي في تقديري من أربعة فقط غير مشكوك في صحتها من بين عدة أقوال منسوبة إلى يسوع في الكتب المقدسة المسيحية... ويبدو أنّ الأصل في الإبقاء على هذه الأربعة، إمّا راجع إلى سهو تحليلي أو لأنها موثقة جداً ومعلومة جدّاً لأتباع يسوع، بما يجعل من غير الممكن حذفها.

والفقرتان اللتان اقتبستهما لا تتلاءمان مع أوليات العقيدة المسيحية، لأنهما توضحان أنّ يسوع لم يكن يعتقد بأنه الله.

2- إننا بالكاد نعرف أيّ شيء عن المسيح التاريخي، وذلك على النقيض من معلوماتنا الأكثر نسبياً والموثوقة عن محمد التاريخي - صلى الله عليه وسلم - وذلك لأنّ المسيح التاريخي قد غُطّي بنسيج (المخيلة) التي صورته بها الكنيسة المسيحية؟ وبالرغم من استخدامي لعبارة (مخيلة) على نهج (ماديسون)، فإني لا أعتقد أنّ صناع المخيلة المسيحية عن يسوع كانوا يرسمون عمداً تصوراً مزيفاً بهدف خداع العامة، كما يفعل اليوم من هم أدنى منهم سمعة من معلني الشؤون التجارية والسياسية، في اعتقادي أنّ المصممين الأصليين للمخيلة المسيحية عن يسوع ساذجون يعيشون عالماً طفولي الفكر، بمعنى أنّ شخصية يسوع وسيرته كانت بالنسبة لهم كما هي قصص التسلية وحكايات الجن بالنسبة للأطفال، حيث تكون القضية مثيرة وآخذة بالشغاف وحيث لا يكون الراوي أو المستمع قادرين على التمييز بين الحقيقة والخيال، وهو التمييز الواضح والمطلوب في حالة رجال ذوي تعليم عقلاني فعّال.

3- إنّي على يقين من أنّ يسوع كان سيشجب التصورات المسيحية عنه، والتي نشأت من بعده وبالحزم نفسه الذي تشجبها به أنت، وذلك للسبب نفسه، فهو يهودي والتصور المسيحي عنه غير مواقف (التوحيد) اليهودي. ومن المحتمل أنّ ما سيصاب به يسوع من صدمة ستكون أعنف عليه شخصياً من أي يهودي آخر، لأنّه قد اتخذ هو بالذات موضوعاً لهذا الانحراف الثوري من أساسيات التعاليم اليهودية.

4- لا أعتقد أنّ يسوع هو مؤسس الكنيسة المسيحية، فممّا لا شك فيه أنّ التابعين له هم الذين أنشؤوها من بعد وفاته، وذلك في إطار الجماعة اليهودية، وذلك كفرق يهودية خارجة عن الأصل. فالمسيحية في علاقتها باليهودية التقليدية كعلاقة (البروتستانتية بالكاثوليكية)، ثم تحولت إلى ديانة بعد أن تحول إليها من غير اليهود أيضاً.

5- بالرغم من تأكيد يسوع على طرح وتقديم تفسيره الذاتي لليهودية، إلا أنه ظل وبإخلاص يهودياً متعصباً لدينه، كما هو دون ريب يهودي في عصبيته. وفي حدود ما وصل إليه علمنا أنه بالكاد قد مضى لأبعد من أطراف تلك الأرجاء من فلسطين التي كان يسكنها اليهود في عصره.

وقد ورد أنه قال (لم أرسل إلا للخراف الضالة من بيت إسرائيل).

إنجيل متى، إصحاح رقم 15، عدد 24

وبذلك حصر مدى تجواله للمراقبة ضمن الأجزاء اليهودية في فلسطين مع الامتناع عن تغشي مناطق الكفرة والمشركين وحتى عن السامريين الذين كانت ديانتهم وما زالت قريبة الشبه بالديانة اليهودية. لا بدّ من أن

يكون هذان القولان موثقين بما فيه الكفاية حتى تحتفظ بسجلاتهما الكنيسة المسيحية التي غدت أغلبيتها الساحقة وعلى نحو سريع من غير اليهود.

"لم أتوقف كثيراً لدى قولك إنّ اليهود ومن كل الملل، المؤمن بينهم وغير المؤمن متحدون في عدم اعترافهم بالمسيح وذلك لأني أعتقد أنك تعني عدم الاعتراف بيسوع ضمن ما صورته به الكنيسة، فاليهود والسامريون هما الشعبان الوحيدان من شعوب الإمبراطورية الرومانية اللذان لم يصبحا مسيحيين، وبالطبع فإنّ صمودهما ضدّ تحولهما إلى دين الأغلبية التي يعيشان في داخلها يعتبر من مصلحتهما وذلك على مدى ثلاثة عشر قرناً عاش فيها عالمنا الغربي أجواء التعصب، غير أنّه لا يمكن لليهود أن يمضوا في إنكار الحقيقة التاريخية، أي كون يسوع يهودياً بأكثر مما ينكر الكاثوليك بأنّ لوثر كان راهباً كاثوليكياً، أو أن ننكر نحن في بريطانيا أنّ جورج واشنطن كان تابعاً لبريطانيا. بالإمكان أن يعتقدوا ويؤكدوا على أنّ هؤلاء الثلاثة مرتدّون، غير أنّ الأوضاع الأصلية لهذه الشخصيات ـ المثيرة للنقاش ـ تظلّ حقائق ثابتة لا تتبدل".

وبعد مناقشة مستفيضة وتفصيلية يخلص توينبي إلى القول: (كيف يمكنك على نحو إفرادي أن تؤكد على أنّ هذه هي وجهة النظر اليهودية الجماعية؟ أو كيف يمكن لأي شخص كان أن يتنبأ بأنّ ما هو موجود الآن سيستمر إلى نهاية الأبد؟ بل إنّنا حتى لا نعرف فيما إذا كان الزمان نفسه يتجه إلى نهاية ما، وخلال ذلك بالطبع فإنّ الزمان لا محال يحدث معه التغييرات).

(... الآن هناك تمثال لجورج واشنطن في لندن، وقريباً كانت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية تناقش الكنيسة المسيحية البروتستانتية حول مشروع إنشائهما المشترك للكنيسة المسيحية الغربية، وذلك بعد أن اتفق الجميع على نصوص الآيات الدقيقة الواردة في الأصل العبري للتوراة، وكذلك كتاب العهد الجديد المخطوط باليونانية، وأتوقع أن يأتي يوم ينجح فيه أحد أساتذة الجامعة العبرية بالقدس وبطريقة منهجية صبورة في تسليط الأضواء على يسوع التاريخي بمعزل عن التصور المسيحي المضفى عليه. وذلك كما يفعل تماماً خبير في ترميم اللوحات وتجديدها حين يكشف عن الأثر الفني الكامل تحت طبقة من الطلاء المتأخر، وأتوقع أبعد من ذلك أنه إذا ما حدث ذلك، فإنّ أهمية هذا البحث العلمي (الذي سيأفل دونه حتى عمل البر فسير يادن في الماسادا) سيتوج بإشادة نصب ليسوع الناصري الشهير في تل أبيب ـ أعلم بالطبع أنّ التجسيد المرئي للشكل الإنساني محرّم في اليهودية (بالرغم من تجاهل هذا التحريم في الكنيس القائم في ديورا ـ ايروبس) وبالرغم من أنّ التحريم قائم في الإسلام أيضاً، فمع ذلك يوجد اليوم تمثال رمسيس الثاني في القاهرة وتمثال آخر لأتاتورك على صهوة جواد في (أنقرة).

".. أولن يأتي ذلك الرجل الذي يدعي معرفة ما يحدث إلى نهاية الأبد متشبهاً بالآلهة وعالماً بالغيب بما لا يعلمه البشر؟ في الحقيقة إنّه سيدّعي لنفسه، رغماً عن المحاذير ما تدّعيه الكنيسة المسيحية ليسوع. وإنني الآن أشعر بالتفاهم الحسن بيننا، بما يسمح لي بإنهاء هذه الرسالة على هذا النحو الساخر".

كتب إبراهام روزنتال ردّاً مسهباً آخذاً نقاط الحوار بالتفصيل غير أنه لم يأت ردّ من توينبي قبل وفاته، وبذلك بقي الحوار اللاهوتي والفلسفي دون انتهاء ومع ذلك كان بنّاء".

إنّ مراسلات (توينبي) بالرغم من (لا أدريته) وميله لدين (عالمي)، إلا أنّه قد قارب بعقلانيته ونقديته التاريخية والفلسفية لنصوص الأناجيل كثيراً مما جاء به القرآن، مثال ذلك عدم ادعاء السيد المسيح للألوهة، سواء أنه هو الله ـ سبحانه ـ أو ابن الله.

"وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (118) (المائدة / ج 7)

وهذا ما ذهب إليه توينبي في مراسلاته.

للمزيد من الاطلاع على أفكار أرنولد تونبي / Arnold Toynbee:

1- مختصر دراسة للتاريخ Study of History: مجلدات اختصار لاثني عشر مجلداً، ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة 1960

2- تاريخ البشرية، مجلدان، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع 1988

3- نشرت ترجمتنا للحوارات الواردة في صحيفة التايمز the times في صحيفة (الاتحاد)، أبو ظبي، تاريخ 29 مارس آذار 1979.

خاتمة:

لو كان قد قُيّض لفقهاء الأمة الإسلامية ومفكريها أن يأخذوا الإسلام بمنهجية القرآن المعرفية لما احتاج (توينبي) وغيره لإعمال العقل النقدي وحده في نصوص الإنجيل، فقد تولى الله ـ سبحانه وتعالى ـ تصحيح كلّ الإشكاليات وبمستوى مطلق في القرآن، إذ يظلّ القرآن الكريم والمجيد والمكنون، هو (الوحي الإلهي المعادل موضوعياً للوجود الكوني وحركته، بما في ذلك الإنسان)، والمتنزل دائماً بمطلقه على نسبية الواقع، والبديل عن كافة الفلسفات (الوضعية) التي تحاول معالجة الأزمات الإنسانية ولكنها ـ في الواقع ـ تغرق الإنسان في الأزمات الأكثر تعقيداً والناتجة عمّا تعتبره حلولاً (منطقية) لها.

ثم إنّ ما يصيب الإسلام من فهم خاطئ لشرعته، يؤدي إلى تصويب سهام (العقلانية) لشرعتنا الكونية، فهي معركة في غير معتركها متى فهم الإسلام على حقيقته وخلت القلوب من (المرض) و(القسوة).

وفي الختام، أعلم أنّ المواضيع التي تطرقت إليها (مثيرة للجدل) ومدعاة للاتهام، ولكني بين خيارين: خيار(التعايش مع ما هو في الواقع) بمنطق (براجماتي نفعي) وفي هذه الحالة ينطبق عليّ مضمون الآيات:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ". (178) (الأعراف / ج 9)

والخيار الثاني هو الالتزام بهدى الله ـ على قدر استطاعتي بإذن الله ـ مهما كان الثمن في هذه الدنيا الفانية بجسدها الفاني.

فلو أدرك المفكرون حقائق الإسلام بمنهجيته المعرفية المتفاعلة ـ استيعاباً وتجاوزاً ـ مع كافة مناهج المعرفة البشرية، والمتفاعلة ـ كذلك استيعاباً وتجاوزاً ـ مع كافة الأنساق الحضارية وبسقف (كوني) يتجاوز (الوضعية) و(اللاهوت) معاً، إذن لهرعوا إليه، ولهرع إليه أنصار (التعددية) سلاماً وتكافؤاً بين القوميات، وبمعزل عن منطق الأغلبيّة والأقليّة.

ولهرع إليه أنصار (العقلانية) المتجاوزة برؤيتها الكونية لكل ما يبوتق التفكير البشري.

ولهرع إليه أنصار (الحرية الإنسانية) المتجاوزة لليبرالية الفردية وبراغمتيتها على حساب المجتمع. الحرية الإنسانية المؤسسة على السلم، وليس على الصراعات وتوازناتها في الشكل الديموقراطي الغربي.

ولهرع إليه أنصار (القسط بين الناس) وليس فقط العدالة الاجتماعية.

"وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ". (209) (البقرة / ج2).

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com